

والمتروكون خلفاً؟

مرّنا سننشر ديونيز وكيت ديردن

لاختفاء الناس وهم في رحلات الهجرة آثارٌ عميقة في أسرهم ومجتمعهم.

أُسْرُ المفقودين في رحلة الهجرة بين أمرين: إمّا لا تعلم كيف تطلب الدعم الحكومي وإما يعرّوها الشك في فعل ذلك، وتكاد الدول لا تعمل شيئاً لمعالجة هذه المشكلة. والظاهر أنه يقلّ الفهم والتقدير للعقبات التي تعترض الأسر في البحث عن إجابات في مصير أعرّالهم المفقودين، ولتأثير مثل هذه الحال في حُسن أحوالهم وسُبل معاشهم.

في شهر كانون الأول/ديسمبر من سنة ٢٠١٨، أُبديت ١٥٢ دولةً في الاتفاق العالمي للهجرة وقرّرت «إفقاد النفوس وبذل جهد دولي مُنسّق في شأن المهاجرين المفقودين»، و«تيسير الأتصال بالأسر المتضرّرة» و «إنشاء قنوات تسويق عابرة للأوطان وتعيين مواضع اتّصال للأسر التي تبحث عن المهاجرين المفقودين»^١. ومع ذلك، تجد الأسر قيوداً بنوعية متعدّدة، من أحوالها الخاصّة إلى

انتفاء الأطر المؤسسية والسياسية المناسبة التي تُراعي حركيّات (ديناميَّات) الوفيات وحالات الاختفاء في رحلات الهجرة، وتتنجّم القيود أيضاً عن التفاعلات المُعقّدة التي تصوغها طبقة المهاجرين وحال هجرتهم وجنسهم، في حين أن الجهد المبذول لتتبع الأقارب قد ازداد تعقداً بذله بجائحة داء الحُمّة التاجية (كوفيد ١٩).

لذلك تعتمد الأسر في الأكثر على القنوات غير الرسمية، والاتصال بالأصدقاء وأفراد الأسرة في مختلف البلدان، والاتّصال بالذين سافروا مع أقاربهم، مثل المهاجرين الآخرين ومُيسري التهريب. مثال ذلك أن في إثيوبيا كان مُيسرو التهريب -الذين هم أنفسهم يكثر أن يكونوا أفراداً في المجتمع المحلي- راغبين وقادرين في كثير من الأحيان على الوصول إلى جهات الاتصال والمعلومات التي يمكن أن تُحدّد أو تُعين على تحديد النواحي التي انتهى إليها المفقود.

اختفى شقيق ليلى فجأةً من حياة أسرته ومجتمعها. انقطع الاتّصال به بين عشيةً أو ضحاها. «هتّف إلينا من الساحل وقال إنه سينام هناك ويذهب في اليوم التالي». فما اتّصل بعد ذلك قطّ.

ويعتمد كثير من الأسر على فرق مجتمعية وجمعيات للمهاجرين واللاجئين وعلى مناصرين لهم، كثيراً ما يكونون هم أنفسهم مهاجرون، ويُتقنون لغات الأسر، وعندهم فهم عميق للسياسات المختصة بالأسر في مجتمعاتها المحلية.

وفي سنة ٢٠٢٠، أجرت المنظمة الدولية للهجرة بحثاً في إثيوبيا وإسبانيا والمملكة المتحدة لتعرف كيف يمكن تحسين دعم الذين فقدوا أقاربهم المهاجرين في بحثهم عنهم وتدريبهم آثار فقدان. على أن الدراسة لا تمثل ما لقيته كل الأسر المهاجرة. ومع ذلك، ففيها أفكار عميقة في كيفية تأثر الناس بفقْد عزيزٍ في رحلات الهجرة.

تجارب الأسر

بين طريقة مقارنة الحكومات ومعارفها وحاجات الأسر فجوة واضحة. إذ تجد الأسر في جميع البلدان شعوراً بالخيرة فلا تعلم الموضع الذي تبتدئ فيه بحثها حين تُدرك أن هناك نقصاً في البروتوكولات أو الكيانات التي يمكن أن تدعم بحثها. وإذا اتصلت الأسر بالسلطات، تقول لها السلطات في العادة إنها ليس لها سلطة قضائية على مسائل المهاجرين المفقودين، وترغم أن الاختفاء لم يحدث على أرضها.

وتلقّت ليلى دعماً في إسبانيا من شبكة من مناصري المهاجرين، يعينون الأسر على بحثها. فكلّمتنا أميرة، وهي تعين ليلى على البحث عن شقيقها، فقالت لنا: «إذا اتّصلت بي أسرة أو فردٌ من الفرق، نبتدئ البحث عن المعلومات بمحوّنة شبكة من المعارف غير رسمية وغير نظامية... نبحت عنهم في المستشفيات، ثم في المعتقلات والسجون... ثم في المشرحة أخيراً...».

وتستعمل الأسر وسائل التواصل الاجتماعي في البحث، فتشترى وصفاً قصيراً للمفقود وصورةً وتستعين بفرق التحري لأخذ معلومات عن المهاجرين المفقودين أو الموتى. ولكن يفتقر كثير منها في منازلها إلى الشبكات (الإنترنت) أو الحواسيب، ولا سبيل لها إلى إجراء البحث الشبكي إلا من عند المنظمات المجتمعية. ولقد تفاقم أمرٌ قلة



هذا أحد المشاركين في بحثنا وهو يُرَبِّنا آخر صورة عنده لأخيه الكبير الذي فُقد.

ومن وجوه الضعف أيضاً الحرمان القانوني من الحقوق، وهو أمر يصوغ قرارات الأسر. وكثيراً ما يُؤدِّي الخوف من ابتداء بحث قبل بلوغ حالة الهجرة المناسبة إلى إرجاء البحث، فإلي ضياع وقت ثمين من جُمع المعلومات أو الأدلة أو كليهما. وأيضاً فقد تقلل قيود سمة الدخول (التأشيرة) خيارات البحث.

ذلك، ويُقدِّم بحث المنظمة الدولية للهجرة بين يديه دليلاً يبيِّن كيف يمكن أن يقود الاختفاء إلى تفاقم واشتداد ضروب طويلة الأمد من انتفاء المساواة الجنسانية. فلما كان معظم المهاجرين المفقودين رجالاً، كَثُرَ أن تكون الزوجات والأخوات والأمهات هُنَّ اللاتي يَسْقُنَ البحث، ويتحملنَ قدرًا غير موافق لأحوالهنَّ من المسؤولية الاجتماعية والمالية. ويتوقع من النساء في الوقت نفسه الاستمرار في بحثهنَّ عن المفقود مع رعايتهنَّ أطفالهنَّ وأفراد الأسرة المُستَين.

الخاتمة

صحيح أن بعض آثار السياسة العامة لبحوث المنظمة الدولية للهجرة مُحدَّدة السِّياق، ولكنها تُعبِّرُ عما سبق من الاستنتاجات والأقارب الكبار السن الباقيين.

بلوغ الثقانة، وهو أمر مُشكِّلٌ أصلاً، في جاتحة داء الحمة التاجية (كوفيد ١٩)، إذ أغلِقَ كثيرٌ من مواضع البلوغ إليها، مثل مقاهي الشبابة أو المراكز المجتمعية أو المكتبات.

غير وجوه ضعف وصعوبة

كثيراً ما يكون الدخول في البحث مُكلفاً، والافتقار إلى الموارد المالية يُنشِئُ معوّلاً زائداً. ويمكن أن يؤدي رفع التقارير، والاجتماع بالسلطات، والسفر إلى آخر المواضع التي شوهد فيها الشخص، ومحاولة اقتفاء آثاره، إلى كلفة ثقيلة، هذا سوى الاحتمال أو الابتزاز في مقابل أخذ المعلومات. ثم إن للأسر في بلدان عبور المهاجرين ومقصدتهم، مثل إسبانيا والمملكة المتحدة، وطاقف غير مستقرة ومنخفضة الأجر وأحوال سُكنى رديئة، فيقلل ذلك كثيراً قدرتها على ابتداء البحث. وفي الإمكنة التي يجيء منها المهاجرون، مثل إثيوبيا، يكثر أن تترك الأسر بلا دعم اقتصادي كان يتوقع أن يدعمهم به أفراد أسرهم المفقودون إن نجحت رحلتهم. وأيضاً يعترض كثيراً منهم مسؤولية سداد الديون الكبيرة التي تكبدها أعزأؤهم ليسدّدوا نفقات رحلتهم. وهذا إنما يؤثر بخاصة في النساء والأقارب الكبار السن الباقيين.

آذار/مارس ٢٠٢١

www.fmreview.org/ar/Issue66

أن تَصَحَّ بروتوكولاً من شأنه أن يُمكن من اتِّباع طريقة مقارنة موحَّدة لتنفيذ الأحكام القانونية الوطنية والدولية القائمة، التي تحمي حقوق أسر المهاجرين المفقودين. وينبغي أن يتضمن هذا البروتوكول تعليمات لجمِّع المعطيات وحفظها والتشارك فيها بفعاليته، وللتعاون بين القطاعات في قضايا المفقودين. فيتنزَّل البروتوكول منزلة دليل للأسر، وأيضاً للفرق المجتمعية والمنظمات والهيئات الحكومية التي تحاول إعانتها، على كيفية بحثها عن أعزائها وحصول الدعم لها.

مَرَاتَا سَنْشُر دِيُونيز @msdionis @msanchez@iom.int

موظفة في مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

كَيْت دِيرْدَن @kdearden@iom.int

موظفة في مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة

١. www.iom.int/global-compact-migration

٢. مشروع المهاجرين المفقودين من المنظمة الدولية للهجرة. www.missingmigrants.iom.int وفرقته البحثية مؤلفة من غابريلا سَنْشُر، من المعهد الديمقراطي للدراسات الدولية، وكارلس أُرْس، من جامعة قرطبة، وتكَلِّمُ أَيْلُو مِنجَسْت، من جامعة آديس أبابا، وضمونيل أوكيري، من جامعة إربسُل.

٣. مثال ذلك ما ورد في:

Five Point Action Plan in IOM's *Fatal Journeys* Volume 2 (2016)
(خطة العمل ذات الخمس نَقْط)

https://publications.iom.int/fr/system/files/fataljourneys_vol2.pdf

وفي مسوِّدة «مبادئ» تقال مع أصحاب المصلحة وأسَر المفقودين» التي يُعدُّها اليوم مشروع المفقودين بعناية لجهة الصليب الأحمر الدولية.

www.icrc.org/en/draft-principles-stakeholder-interaction-families-missing-migrants

والتوصيات التي أتى بها مشروع المهاجرين المفقودين ومنظمات أخرى، مثل لجنة الصليب الأحمر الدولية.^٢

وينبغي في كلِّ ما يُبدَل من جهد لإعانة الفاعدين أفراداً مهاجرين من أسرهم أن يُقرَّ بخبرة الأسر ومعارفها وحسُن حالها وأن توضع في مركز الهمِّ. وهذا إما يعني قضاء حاجاتها، بدلاً من التركيز على الجوانب الأمنية والجائنية الملابس لاختفاء الشخص. وينبغي أن يكون تعريف الأسرة لُبناً في الحالات التي يدخل فيها فقد مهاجر، هذا مع مراعاة التبعية الانفعالية، وأن يُوفَّقِ السياقات الثقافية وغيرها.

ثم إنَّ الفرق المجتمعية والمناصرون في القاعدة الشعبية والمنظمات غير الحكومية ومنظمات المجتمع المدني الرئيسة والمنظمات الأخرى التي تدعم أسر المهاجرين المفقودين، كل هذه ذات أهمية حاسمة إذ انتفت القوانين والسياسات وعوامل الصُّون المناسبة التي تعين الناس على الاقتراب من السلطات وتلقي الدعم منها. فيمكن أن تؤلَّف فرِّق عمل من هؤلاء الفاعلين وأسَر المهاجرين المفقودين في كل دولة لإعانة على تبادل المعلومات بين الأسر والهيئات الحكومية المتصلة بالأمر. ونعم، هذا التعاون يمكن أن يبتدأ به على صعيد القطر، ولكن ينبغي أن يكون القصد هو تأليف شبكات مع الفاعلين الآخرين على الصعيد الإقليمي وخارجة، لتبادل سُنن العمل الفضلى والإعانة على حل قضايا معينة من قضايا المفقودين.

إنَّ مسألة المهاجرين المفقودين لا تعالجها السِّياسات العامَّة أو القوانين معالجة تصلح بها. ولعل من المنطلقات عند كل دولة